الولادة المقدسة

ودورها فى أحقية العرش فى مصر القديمة

دكتورة نبيله محمد عبد الحليم
مدرس تاريخ وحضارة مصر والشرق الأدنى القديم
كلية التربية – جامعة الاسكندرية

تعتبر الولادة المقدسة من الظواهر الأساسية التى تضمنتها المفاهيم المصرية القديمة . وفى الإمكان معالجة هذه الظاهرة من زاويتين رئيسيتين : الأولى ، هل كانت الولادة المقدسة هى الأساس لتولى العرش ؟ أم كان الشرط اللازم لتولى العرش هو أن يكون الشخص من أم تجرى فى عروقها الدماء الملكية نقية تماماً ؟ وإذا لم يتوفر هذا الشرط ، فيجب أن يتزوج من سيدة من الأسرة المالكة . ولا شك أنه كانت هناك من الأسباب التى جعلت هذا الشرط يتحكم فى إجلاس الملك على العرش . والنقطة الثانية ، هل الولادة المقدسة أو لعل الأحسن تسميتها (الولادة من الإله) كانت لازمة على أساس النبوءة عندما ينتفى الشرط الأصلى وهو انتماء الملك إلى أم ملكية أو زواجه من سيدة ملكية.؟

وفى هذا المجال تنبغى دراسة بعض جوانب الإنتاج الحضارى فى مصر القديمة المتعلق بهذا الجانب . فبالنسبة لنشأة الحضارة المصرية القديمة ، يلزم القول بأن الإنسان المصرى القديم قد شارك فى صنع الأصول الأولى للحضارة الإنسانية فى كافة مجالاتها سواء المادية منها أو المعنوية . وقد بدأ هذا الدور فى مرحلة إنتاج الطعام حيث تمكن من التوصل إلى الزراعة وبناء القرى . ثم استمر فى تأدية هذا الدور حتى وصل إلى مرحلة النضوج فى نهاية عصر ما قبل التاريخ . ولقد استلزم نجاح الإنسان المصرى القديم فى هذا

الاتجاه وضع بعض المبادىء اللازمة لتنظيم مجتمعه فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية . ويصعب على المؤرخ التعرف على نوع التنظيم السياسى المبكر فى هذه المجتمعات الأولية فى مرحلة العصر الحجرى الحديث وذلك لعدم وجود أدلة مكتوبة تبين تفاصيل هذا النوع من التنظيم . ولكنه يلاحظ أن بعض الآثار التى عثر عليها فى موقع حلوان العمرى — وهى من حضارات العصر الحجرى الحديث — تلقى بعض الضوء التاريخى على المجال السياسى فى ذلك العصر المبكر . فقد عثر على هيكل عظمى وبجوار يده صولجان يرمز للحاكم مما يعبر بوضوح عن حقيقة وجود مظهر أولى للرئاسة . فوجود رئيس يستلزم بالتالى وجود مرؤوسين (١) .

وقد تطور التنظيم السياسى فى عصر ما قبل الأسرات حيث وصل إلى مرحلة تواجد الكيانات الصغيرة المتعددة المستقلة بحدودها وعواصمها وحكامها وآلهتها ورموزها الخاصة بها . وكان يقوم على رأس تلك الكيانات حكام ترتبط زعامتهم بمظاهر الطبيعة ، فاذا مرض الحاكم أو تقدمت به السن فسوف يؤثر ذلك على مظاهر الطبيعة ، فيقل المطر وتضعف الماشية ويقل المحصول . وإذا ما تغير هذا الزعيم فإن صفات الحاكم الجديد وهو عادة يكون كشاب ملىء بالنشاط والفاعلية ، فيعم الخير فى هذه الحالة . وربما كانت هذه أولى الخطوات نحو قدسية الزعامة ولكنها لم تبلغ مرحلة التألية فى تلك المرحلة المبكرة .

ولم ينفرد المجتمع المصرى القديم بظاهرة الارتباط بين الحكام وبين بعض القوى الإلهية حيث أن كل المجتمعات الأولية قد أخذت بهذه العقيدة ولعل عقيدة الطوطمية Totemism كظاهرة اجتماعية فى المجتمعات البدائية تعتبر دليلا على أن الإنسان الأول قد فرض على نفسه عقيدة تربط بين الحاكم وبين قوى الطبيعة .

---

(١) ر. الناضورى : جنوب غربى آسيا وشمال أفريقيا ، طبعة ثانية ، بيروت ، ١٩٦٧ ، ص ١٢٦ .

فقد كانت مصر فى عهودها الأولى تتكون من جماعات تربط بعضها عن طريق انتسابها لطوطم يتخذ من النبات أو الحيوان ، يعتقدون أنه أصلهم ويتخذونه رمزاً يدل عليهم . فالطوطمية فى حقيقة مفهومها كانت تعنى عبادة الأسلاف من غير البشر ، والقبائل الأولية كان لها تفكير خاص يتصل بالآلهة والعبادات ويختلف كثيراً عما تعرفه الديانات ، ذلك لأن ما يعتقدون به لم يكن ديناً وإنما عبادة لقوى أو مظاهر مختلفة .

وبعد التطور الرتيب ، انعكس هذا الاعتقادبدوره على القوى الإلهية. ولقد استقر الرأى استناداً إلى دلائل مختلفة على التفرقة بين بدايات هذه الآلهة وبين الطواطم (١) إذ أن لهذه الكلمة مفهوماً واضحاً عندعلماء الاجتماع . وربما كانت هذه الآلهة فى بدايتها معبودات قبلية لجماعات بشرية متعددة مستقرة هى التى كونت فيما بعد المجتمع المصرى القديم . ولم تكن الشعارات التى اتخذتها الاقاليم الإدارية فى مصر فيما بعد سوى امتداد للرموز المقدسة تلك الوحدات من أشجار وحيوانات . وعلى هذا الأساس يمكن اعتبار بعض الرموز مثل سوت Swt (شعار مملكة مصر العليا) ، والنحلة Bity (شعار مملكة مصر السفلى)(٢) من الطواطم التى يمكن التدليل على وجودها فى إقليمى مصر فى العصور المبكرة . ولقد أثبت علماء الآثار وجود فروق فى درجة التطور الحضارى فى هذين الإقليمين إذ كانت السيادة الحضارية فى أول الأمر للشمال .

وفى المجال الدينى ، تتبع الإله حورس إله مصر السفلى منافسة ست إله مصر العليا ، مما يمكن اعتباره دليلا على محاولة تحقيق الوحدة الشمالية بين الشمال والجنوب والتى اعتبر أن الشمال قد بادر إليها . وبالرغم من أن هذا

---

(١) ج . يويوت : مصر الفرعونية ، ترجمة سعد زهران ، ومراجعة عبد المنعم أبوبكر ، القاهرة ، ١٩٦٦ ، ص ٢٢ .

(٢) Gardiner, A., Egyptian Grammar Being an Introduction to the study of Hieroglyphs, London, 1969, p. 73.

التوحيد الأول لا يعرف عنه الكثير سوى حدوثه ، الا أن البلاد عادت مرة أخرى وانقسمت إلى مملكتين متنافستين على رأس كل منهما ملك من خدام حور س ، وهم ملوك يضعهم المصريون القدماء فى مصاف أنصاف الآلهة . وكانت عاصمة الشمال توجد غرب الدلتا ويضع قائدها على رأسه تاجاً أحمر هو الشعار والزينة التى تتخذها الإلهة نيت ربة سايس (صا — الحجر) والإلهة الثعبان واجت ربة مدينة بوتو (تل الفراعين) . واتخذ ملوك الجنوب التاج الأبيض شعار الإلهة العقاب نخبت سيدة مدينة نخن . ولم يلبث ملوك الجنوب أن استولوا على مملكة بوتو فى الألف الثالث ق . م . وقد ورث ملوك الأسرات الأولى قوى فوق الطبيعة كانت تعزى فى الأزمنة السحيقة إلى رؤساء القبائل النيلية . وكان انتسابهم الطوطمى للإله حورس ، واتخاذ التاج والصولجان وطقوس التتويج وحفلات اليوبيل الدورية ، كان كل ذلك يزودهم بقوة سحرية لازمة للمحافظة والإبقاء على كيان المجتمع . وبفضل هذا الامتياز الأدبى ، عرفوا كيف يخضعون مواطنيهم خضوعاً مباشراً للملك حيث كانت تلك المفاهيم فى مخيلتهم أثناء مرحلة تطور الطوطمية إلى القدسية . ولقد ساعدت على قدسية هؤلاء الزعماء بعض المظاهر مثل الرموز التى جعلت من يقبض عليها زعيماً أو ملكاً ، سواء كان ذلك التاج الأبيض أو التاج الأحمر أو عصا الرئاسة . وبالإضافة إلى ما سبقت الإشارة إنيه ، نشأت بعض المظاهر الأخرى التى ساعدت على تأكيد القدسية التى كانت تضفى على هؤلاء الحكام مثل انتساب الملك إلى شمشو حور ، مما كان يكفى لإعطاء حق الجلوس على العرش . ولقد كانت هذه الحقيقة الأساسية فى العقيدة المصرية القديمة أساساً لفكرة الملكية الإلهية . وكانت الطقوس الدينية تؤكد أن ملك مصر كان يعتبر تجسيداً للإله حورس منذ الأسرة الأولى . وربما كانت تلك الظاهرة تدعو إلى الاعتقاد بأن حورس قد تجسد منذ فجر التاريخ فى زعيم محلى ، واستطاع هذا الزعيم أن يقهر منافسيه ويصبح ملكاً على مصر المتحدة . وهكذا اعتبر حورس ملكاً اسطورياً بعد قيام الوحدة السياسية ، وانعكس هذا الحق على كل من يجلس على عرش

مصر وأصبح ملكاً حوريسياً (١) .

ويستلزم دراسة موضوع الولادة المقدسة ودورها فى أحقية العرش فى مصر القديمة تحليلا لتسلسل بعض الأسرات المصرية ولزوجاتهم . وتنبغى الإشارة إلى أن معظم ملوك الأسرتين الأولى والثانية كانوا يتزوجون من أميرات من الشمال ، ثم تبع ذلك مرحلة بدأنا نستشعر فيها أهمية انتساب الملك إلى أم ملكية . فبالنسبة للحور نثرخت زوسر مؤسس الأسرة الثالثة ، فيرجح بعض المؤرخين .(٢) أنه قد فاز بالعرش عن طريق أمه نى ماعت حب التى ورد اسمها مكتوباً على بعض الأختام التى عثر عليها فى بيت خلاف . (٣) وذلك على أساس ان هذه السيدة كانت أولا زوجة لملك مصر السفلى ، وأنها أنجبت من هذا الملك ابنها زوسر ، وأن زوجها قد لقى مصرعه خلال معاركه مع خع سخوى ملك الجنوب الذى تزوجها بعد انتصاراته على زوجها المقتول . (٤) ونتيجة لهذا أصبحت نى ماعت حب ملكة مصر العليا والسفلى ، واستطاعت أن تورث ابنها زوسر الحق الشرعى ليجلس على عرش الجنوب وأن يؤسس أسرة ملكية جديدة. وبذلك أصبح زوسر لأول مرة يحوى فى شخصه الصفة الإلهية عن طريق بنوته لملك الشمال وبنوته للأم الملكية واستطاع زوسر بهذا أن يحكم مصر بعد الارتفاع بنفسه إلى مصاف الآلهة.(٥) ومنذ ذلك الوقت أصبح الملك المصرى القديم يؤله. ويعتبر بذلك تجسيداً للإله حور. وتحقيقاً لعقيدة

---

(١) ص. ن. كريمر : أساطير العالم القديم ، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف وعبد المنعم أبو بكر ، القاهرة ، ١٩٧٤ ، ص ٢٨ .

Frankfort, H., Kingship and the Gods ,A Study of Ancient Near Eastern Religion as the Integration of Society and Nature, Chicago, 1969, p. 40.

(٢) أ. دريوتون ، ج. فانديه : مصر ترجمة عباس بيومى وراجعة محمد شفيق غربال وعبد الحميد الدواخلى ، طبعة أولى ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ١٩٠ .

(٣) Sethe, K., Urkunden Des Alten Reiches, I, Leipzig, 1932, p. 4. L. 9.

(٤) Breasted, J.H., A History of Egypt, London, 1935., p. 111.

(٥) أ. دريوتون ، ج. فانديه : المرجع السابق ، ص ١٩٠

الملكية الإلهية ، أضفى الملوك على نظام حياتهم الصفات الإلهية وذلك بربط مظاهر حياتهم بالآلهة بغرض تعزيز الصفة الإلهية للحكم الملكى وتأكيداً لانتسابهم لعالم الآلهة .

أما فيما يتعلق بالملك سنفرو ، فقد تزوج من الأميرة حتب حرس . ومن المحتمل جداً أنها ابنة الملك حونى ، وهى الأميرة التى كانت تحمل فى دمها حق وراثة العرش ، وبذلك أصبح مركزه شرعياً فى البلاد . ولو أن بعض المؤرخين يتشككون فى صلته بحونى آخر ملوك الأسرة الثالثة ويريدون أن يربطوا بينها إحدى صلات القربى (١) .

ولئن كان نسب الملك الإلهى رمزياً فى أوائل الأسرات ، فإن بعض من لم يكن من حقهم تولى العرش فى مصر قد خرجوا على الشعب بنبوءة من الكهنة لتقنع الإنسان المصرى القديم فى أصلهم المقدس وذلك بغرض الوصول إلى العرش . ومن ذلك نذكر تلك الأسطورة التى عثر عليها مكتوبة على بردية تعرف باسم وستكار (٢) وتنسب إلى الإله رع إنجاب أبناء يتنبأ لهم باعتلاء العرش وهم الملوك الثلاثة الأول للأسرة الخامسة . وعلى ذلك فان تلك البردية قد أوردت بعض التفاصيل عن المولد الإلهى حيث جاء فى أحد الفقرات ان الأطفال الثلاثة هم أبناء من صلب الإله رع ، وفى فقرة أخرى أن رع هو أبوهم ، وعلى أن الإلهات المساعدات فى عمليات الولادة(٣)

---

(١) Fakhary, A., The Mounments of Sneferu at Dahshur, Vol. 1, 1959, pp. 15 — 23.

(٢) Erman, A., Die Maerchen Des Papyrus 1escat, 2 Vols, Berlin, 1890.

———, The Literature of the Ancient Egyptians (Translated by Blackman, A.M., London, 1927, p. 36.

(٣) Blackman, A.M., „Notices of Recent Publications". (in) JEA., Vol., x, London, 1924, p. 169."

من الإلهات «حقت» التى عجلت عملية الوضع ، و«إيزيس» التى كانت تنطق باسم كل مولود بعد ولادته ، و«مسخنت» التى كانت تعلن ممارسته الملكية لحظة ولادته و«خنوم» الذى كان يمنح جسده الصحة . ويمكن اعتبار قصة المولد الإلهى لأبناء الإله رع الثلاثة لها مغزاها التاريخى ، فهى محاولة نسجها الفكر الدينى الهليوبوليتانى حول كهنة الإله رع لتجعل منهم أبناء لهذا الإله ليكتسبوا بذلك شرعية وحقاً إلهياً فى الحكم . وهكذا يكون ملوك الأسرة الخامسة قد اضطروا إلى الالتجاء إلى الولادة الإلهية فى حين لم يحدث هذا مع أى ملك من ملوك الأسرتين الثالثة والرابعة .

ولقد تلى ذلك مرحلة فى التاريخ المصرى القديم لم تصبح فيها ظاهرة الولادة الإلهية وحدها وسيلة الوصول إلى العرش ، إذ كان الإله أيضاً يصور بصورة الجالس على العرش . وقد اعتبرت نساء الأسرة الثامنة عشرة أنفسهن أزواج آمون وكاهناته منذ عصر الملكة إياح حوتب واعتبار الملوك من أبنائهن حكام شرعيين من ورثة آمون إله طيبة . وقد عثر على أثر (١) بين أنقاض الكرنك يرجع إلى عهد الملك أحمس نقش عليه وصية خاصة بالبيت المالك ويظهر فيها الفرعون سقنرع ممسكاً بصبى يدعى أحمس ويتقدم به لآمون بقربان من الخبز الأبيض . ويستدل من دراسة هذا الأثر على أن الفرعون كان يقدم ابنه لآمون . وتبدو من ألقاب الصبى ما يصوره ابنا لآمون وأنه يطلب السماح من آمون أن يعهد إنيه بولايته على العرش . وقد صورت أم الصبى وهى الملكة أحمس نفرتارى على نفس الأثر باعتبارها من زوجات آمون . ويتضمن الأثر تنصيب الملكة الكاهنة لآمون مما يدل على أن الملكة كانت تشغل وظيفة دينية فى معبد آمون . ويبدو أن هذا التقليد قد توارثه أحمس عن سقنرع الذى كان له نفس الحق ، واحتفظ به لزوجته إياح حوتب . وكانت وظيفة الكاهن لآمون لها خطورتها فى تلك المرحلة ،

---

(١) أ . بدوى : فى موكب الشمس ، الجزء الثانى فى تاريخ مصر الفرعونية من آخر الضحى إلى أول الأصيل ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص ٣٧٦ .

وخاصة فيما يتعلق بالسيطرة على أوقاف معبد آمون وكهنته وصناع كنوزه .

ويبدو ان تحوتمس الثالث وهو صبي صغير قد صورت له نبوءة من الإله آمون لتولى العرش ، فكان ملزماً أن يجلس على العرش ومعه حتشبسوت . وتشير لوحة المهندس المعمارى انيني (١) إلى ذلك . يقول النص «ان تحوتمس الثانى قد لحق بالرفيق الأعلى بعد أن جعل مكانه ولده تحوتمس (يقصد تحوتمس الثالث) ملكاً على الأرضين . فغدا سلطاناً على عرش من أنجبه . غير أن اخته (يقصد اخت تحوتمس الثانى) الزوجة الإلهية حتشبسوت قد اضطلعت بإدارة شئون البلاد ..» (لأنها «البذرة الملكية» التى خرجت من الآلهة يقصد آمون صاحب العرش المقدس) .

ونجد أن حتشبسوت قد اعتمدت فى تبرير ارتقائها للعرش على جهود كهنة آمون الذين أوحوا اليها بتصوير قصة مولدها الإلهى . ونرى على جدران معبد الدير البحرى وفى مبانى معبد الكرنك ، النقوش التى تسجل قصة مولدها الإلهى . وتظهر على نقوش أحد جدران معبد الدير البحرى ما يشير إلى الإله آمون وهو يعلن أمره إلى الآلهة بإنجاب حتشبسوت» .. إننى سأضم لها القطرين .. الأحياء أجمعين ، اننى سأمنحها كل البلاد ...»(٢) .

ونرى فى منظر آخر ، الإلهه «حقت» وهى تقف أمام منظر الإله «خنوم» ومنظر آخر لطفلين متشابهين يمثلان حتشبسوت . ونقرأ فى النقوش «لقد جئت اليك لأصورك أجمل من جميع الآلهة .. لقد منحتك لتعتلى عرش حور مثل رع .. هذا طبقاً لأوامر أبيك آمون رع الذى يحبك ..» . ولقد كانت الخلافات حول أحقية تولى العرش بعد موت تحوتمس الثانى من أكثر الموضوعات التى اهتم بدراستها الباحثون وعلى رأسهم كورت

---

(١) Breasted, J.H., Ancient Records of Egypt, Vol. 11, Chicago, 1906, P. 341.

(٢) Naville, E., The Temple of Deir El Bahari, Part II, London, 1896, p. 46.

زبته (١) وإدجرتون (٢) . فما أن ولى تحوتمس الثالث العرش حتى خرج على الناس بقصة اختياره الإلهى التى سبقت الإشارة إليها . وقد صورت مناظر هذه القصة على جدران الكرنك (٣) وتصور هذه القصة تحوتمس الثالث وهوطفل فى معبد آمون ، والإله آمون فى زورقه يبحث عنه . وعندما يجده آمون يتجه إليه ويأخذ بيده إلى قدس الأقداس حيث يجلسه على عرش الشمس ، ويتوجه بتاج الوادى ويجعل الدنيا تحت قدميه .

ولم ينفرد تحوتمس الثالث بمثل هذا التصوير ، وإنما فعل ذلك أمنحوتب الثالث . فعندما ولى العرش واطمأن إلى توطيد أركان حكمه تحيز إلى كهنة آمون وخاصة وأنه شعر بمحاولتهم استغلال نسبة إلى أم أجنبية وهى «موت أم وبا» ابنة الملك الميتانى فاستجاب للكهنة على الفور وشيد معبداً ضخما لآمون فى طيبة . فرد الكهنة على هذا الجميل وأعلنوا على الشعب مولده الإلهى . وقد سجل أمنحوتب الثالث قصة مولده الإلهى فى نقوش معبد الأقصر وهى تشبه إلى حد كبير قصة المولد الإلهى للملكة حتشبسوت حيث هدف من وراء قصة مولده الإلهى إلى التغلب على نقطة ضعفه ألا وهى أنه كانت تجرى فى عروقه دماء غير مصرية . ويستدل من هذه القصة أن طريق أمنحوتب الثالث إلى العرش لم يكن سهلا ، وانه لجأ إلى تلك النبوءة حتى يقنع الناس بأحقيته فى العرش . ولقد دفع كهنة آمون إلى إخراج هذه القصة كراهيتهم لتحوتمس الرابع الذى كان قد انحاز إلى العقيدة الآتونية . ولقد ترتب على ذلك إنكار كهنة آمون لعهده ، فما أن اطمأنوا إلى موقف أمنحوتب الثالث ، حتى كتبوا له تلك الأسطورة لإظهار حقه فى العرش من ناحية ، وليحرموا منافسيه من أبناء تحوتمس الرابع من العرش من ناحية أخرى .

---

(١) Sethe, K., Die Thronwirren unter den nackfolgern konigs Thoutmosis 1, Untersuchungen 1, Berlin, 1896, pp. 1 — 58.

———, Das Hatshepsut-problem noch einmal untersucht (Abhandlungen-Preuss-Akad. d. Wissenschaften, Berlin, 1932.

(٢) Edgerton, W.F., The Thutmosid Succession (Studies in Ancient Oriental Civilization : Publications of the Chicage Oriental Institute), 1933.

(٣) أ . بدوى : المرجع السابق ، ص ٤٦٩ .